الجرعاء

ودورها التجاري

د. سمير صالح حسن العمر[*]

الجرعاء والجرعة " المكان الذي فيه سهولة ورمل " [1] ، او " الرملة التي لاتنبت شيئاً " [2] و "جرع الماء ... وتجرعه بلعه ... وقيل هو الشرب قليلاً قليلاً ... والجرعة ملء الفم يبتلعه ...وجرع الغيظ : كظمه " [3] ويفهم من ذلك ان الجرعاء منطقة رملية قليلة الماء والنبات . والجرعة موضع بين الكوفة والحيرة في العراق [4] والجرعاء ايضاً بلدتان " احداهما في ديار مصر والاخرى في جزيرة العرب " [5] بل ان في جزيرة العرب اكثر من جرعاء : جرعاء مالك وجرعاء العجوز . [6]

اما الجرعة او الجرها او الجرهاء ، الميناء التجاري -موضوع البحث- فقد اختلف العلماء في موقعها " فذهب بعض منهم الى انها العقير ...ومنهم من رأى انها الخرائب المعروفة بأبي زهمول ... ومنهم من رأى انها القطيف وظن اخرون انها سلوى الواقعة على ساحل البحر " [7] وظن لبعض انها " مدينة اوفير الشهيرة بكثرة ذهبها والغنية بمعادنها وقد جاء ذكرها في العهد القديم " [8] ويرى البعض انها : هجر [9] في حين يراها خرون انها : الاحساء [10] و " الاحساء منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء ، تتبايع عليه العرب " [11] ، ويبدو انه سوق محلي قديم فمعظم الجغرافيين

(*) كلية الاداب /جامعة الكوفة .

وكتاب المسالك لم يذكروا الجرعاء ، اللهم الا ما ذكره ابن حوقل من انها مرتفع بالاحساء يعرف بالجرعاء [١٢]، والاحساء كان " بها مستقر القرامطة من ال ابي سعيد(الحسن بن بهرام)"[١٣] ونسله حيث " كان من رسومهم ركوب مشائخهم واولادهم فرادى فيتجمعون الى قبلة الاحساء بالمكان المعروف بالجرعاء ويلعب احداثهم بالرماح على خيولهم وينصرفون ... وقد لبسوا البياض لاغير ،وكان من رسومهم ان تقع شوراهم بالجرعاء فيمن يخرجونه (للقتال)[١٤] وكان رؤسائهم " يتوزعون من مال البصرة والكوفة وما يقبضونه من الحجاج ويرد عليهم من مال عمان والغنائم دون الخمس الخارج عنهم لصاحب الزمان الف الف دينار وربما زادت المائة والمائتين الف دينار "[١٥]

ومهما يكن امر الجرعاء ، فانها كانت قديماً تقع على خليج الجرعاء في الجانب الشرقي لشبه جزيرة العرب قبالة تيلوس التي تبعد عن الجرعاء خمسين ميلاً [١٦].

ومدينة الجرعاء " ذات محيط طوله خمسة اميال ولها ابراج مبنية من مقاطع الملح المربعة [١٧] " وارضها سبخة لذلك زعم اليونان ان بيوتها من حجارة الملح وان اهلها يرشون جدرانها بالماء عند ارتفاع درجات الحرارة لمنع قشورها من السقوط"[١٨] ويذكر ان الجرعاء " تشتمل على سور وخندق ولها اربعة ابواب "[١٩] وفي ميناء الجرعاء فنار عالٍ لارشاد السفن والمراكب التجارية للرسو فيها .[٢٠]

ومثلما اختلف في موقع الجرعاء وتسمياتها ، واختلف العلماء في نشأتها ايضا فمنهم من جعلها مدينة كلدانية [٢١]،ومنهم من جعلها مدينة فينيقية اعتماداً على الكشف الاثاري لمدافن الجرعاء والتي يعتقد " ان المدفونين فيها من اصل فينيقي هجروا اوطانهم وقطعوا فيافي بلاد العرب

وحلوا بهذه الربوع وبنوا على البر بلده ... عند رأس الخليج اسمها الجرعاء "[٢٢] وكان ذلك منذ خمسة الاف سنة [٢٣].

ولما كان ازدهار تجارة الخليج العربي البحرية منذ الف الثالث ق.م [٢٤] فمن المؤكد ان بناء الجرعاء متزامن مع نشاط الحركة التجارية في المنطقة تماما والمعروف ان الساحل الغربي للخليج العربي مون العراق "بموجات من البشر منذ الاف السنين قبل الميلاد ، فقد كانت القبائل العربية النازحة من الجنوب لاسباب متعددة تحط رحالها على هذا الساحل انتهازا لفرصة ملائمة ترحل خلالها الى العراق لتستقر فيه "[٢٥].

ومن المؤكد ان العرب "سادة التجارة في ... المحيط (الهندي) بل انهم كانوا تجار ومتجر عالم المحيط الهندي في تلك العصور "[٢٦] والساحل الغربي للخليج العربي " كانت تحاذيه الرحلات البحرية دائما "[٢٧] ،والعرب سكان هذا الساحل كانوا اقرب الى تجارة الهند من غيرهم . وقد اشارت التوراة الى هذه التجارة ودور العرب فيها " وبنوا ددان متجرون معك وجزائر كثيرة تجار يدك وقد ادت قرون العاج والابنوس قياضا لك" [٢٨] " وقر على العرب بيتوا في غاب العرب،ياقوافل الددانيين "[٢٩].

تجارة الجرعاء :

نشطت الجرعاء بتجارتها " وبلغت شهرتها اليونان والرومان وكانت محطة من المحطات العالمية وملتقى طرق القوافل التي ترد من جنوب بلاد العرب قاصدة العراق "[٣٠] وكانت تجارتها تصل " الى موانئ البحر الاحمر والمتوسط والى حضرموت "[٣١] وكانت الرحلة البرية بين الجرعاء وحضرموت تستغرق اربعين يوما [٣٢] .

وامتدت تجارة الجرعاء الى السواحل الافريقية [٣٣] وتتفرع عنـــها " طرق نحو مكة والمدينة (يثرب) وبترا "[٣٤] وكـــانت الجرعـــاء نقطـــة انطلاق القوافل التجارية من بلاد البهار والافاويه ... كمـــا كـــانت علـــى اتصال وثيق بموانئ الخليج العربي ولها تجارة نشطة مع اغريق ســـلوقية "[٣٥] حيث كانت " الملاحة ممكنة في دجلة من مصبه ... حتـــى ســـلوقية كذلك الفرات فهو صالح للملاحة حتى بابل "[٣٦] فاصبحت سلوقية " نهايـــة خط الملاحة في الخليج "[٣٧].

وكانت ترد الى الجرعاء " السلع التجاريـــة الهنديـــة ... ليتولـــى العرب نقلها الى الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومصر والـــى الحـــوض الاوسط لنهري دجلة والفرات "[٣٨] وبلغت تجارة الجرعاء " ابعاداً فبلغـــت حدود بلاد الدارسين (سيلان)"[٣٩].

امتاز اهل الجرعاء بالثراء حتى " نافسوا في ثرائهم الســـبئيين "[٤٠] وامتلكوا "كميات كبيرة من الاغراض المصنوعة بالذهب والفضـــة مثـــل الاسرة والركائز الثلاثية الارجل والاحواض وادوات الشرب ،والتي ينبغي ان تضيف اليها التكاليف الفخمة لبيوتهم لان الابواب والسقف والجـــدران كانت مزينة بالعاج المطعم والذهب والفضة والاحجار الكريمة "[٤١].

ولاريب ان سعة نشاطهم التجاري براً وبحراً وبانواع عديدة مـــن البضائع الهندية والعربية – ادى الى ثرائهم ،ناهيك " انهم كانوا مشـــهورين بجمع اللؤلؤ وتصديره "[٤٢].

ويمكن ان يتخيل المرمدي غنى ورفاهية اهل الجرعاء من خـــلال البضائع التي يتاجرون بها ومنها : العاج واخشاب الابنوس [٤٣] والتوابـــل والمواد العطرية [٤٤] والقطن واللؤلؤ[٤٥] ،والذهـــب والفضـــة والاحجـــار الكريمة [٤٦].

ومع ان الجرعاء ذات ارض سبخة الا انها كانت مشهورة بتمورها [٤٧]،ورغم ان المصادر لاتعطينا فكرة عن تجارة الجرعاء بالمواد الغذائية،الا ان واقعها الزراعي المتواضع يدفع الى الاعتقاد بانها تستورد المواد الغذائية من العراق وبلاد الشام .

اما الجوانب الاخرى في حياة الجرعاء واهلها فان المصادر لاتسعفنا الا بالشئ القليل جداً ، فيذكر ان الملك انطيوخس الثالث السلوقي حول مهاجمة الجرعاء في عام (٢٠٥ ق.م) باسطول نازل من دجلة الى الخليج ، ولكنه عدل عن ذلك بعدان استرضاه اهل الجرعاء بالهدايا العظيمة من الفضة والاحجار الكريمة .[٤٨] وقدورد في رسالة زعيم الجرعاء الى الملك السلوقي "" لاتدمر ايها الملك الشيئين الذين منحتهما ايانا الالهة : الحرية والسلام المستديم "[٤٩] مما يوحي بسيادة الوثنية كدين كما هو الحال العالم القديم ، وتشير المصادر الى ان سبب عدول الملك انطيوخس الثالث عن فكرة مهاجمة الجرعاء يعود الى ان " رؤيته للاراضي القاحلة كان كافياً ليجعله يتخلى عن فكرة الاحتلال "[٥٠].

ومع ذلك يمكن القول ان الجرعاء مدينة تجارة وتجار والحرية والسلام ضروريان لديمومة تجارتها ،ويبدو ان الملك ادرك ان مهاجمته للجرعاء سيؤدي الى ضرب تجارتها وبالتالي يؤثر ذلك على تجارة سلوقية نفسها ، فاقتنع بما حصل عليه من اموال .

ومن المحتمل ان يكون الهدف من الحملة مجرد استعراض للقوة والابتزاز اذ ان الواقع يؤكد ان خطوة الملك انطيوخس الثالث " كان ينقصها التصميم "[٥١] .

ان نشاط الجرعاء التجاري يرتبط اساساً بازدهار طريق الخليج العربي والذي ظل مزدهراً "حتى مطلع القرون الميلادية عندما تحولت

الخطوط البحرية التجارية الى مسالك البحر الاحمر "[٥٢] ناهيك ان اليونانيين اكتشفوا مواقيت الرياح الموسمية والوصول الى الهند دون الوساطة العربية فانكمشت مكانة الخليج التجارية .[٥٣]

ولاريب ان الاهتمام بالطرق البرية عبر ايران في العهد الفرثي ثم الساساني ادى الى اضعاف التجارة البحرية في الخليج العربي ،[٥٤] كما ان الصراع الفارسي البيزنطي ادى بشكل او بآخر الى اضعاف النشاط التجاري في الخليج العربي .[٥٥]

وعند ظهور الدولة العربية الاسلامية فان "موقع السلطة المركزية السياسي كان في المدينة ومكة خلال فترة الخلفاء الراشدين ثم في بلاد الشام زمن الامويين وكان لهذا الموقع السياسي اثر واضح في تركز العلاقات التجارية ووجهتها "[٥٦]،وهكذا تظافرت عدة عوامل لاحتواء الجرعاء واضمحلالها كمدينة وميناء ، فكانت التجارة سببا في نشوؤها وهي السبب في زوالها ايضا .

الهوامش والمصادر:

١. ياقوت الحموي ،معجم البلدان،(بيروت ١٩٥٧)،٢/٢٧-١٢٨.
٢. م.ن .
٣. ابن منظور ،جمال الدين محمد بن مكرم ،لسان العرب، (بيروت ١٩٥٦)، مادة جرع .
٤. ابن اعثم ، احمد الكوفي ، الفتوح ،(حيدر اباد-الدكن – ١٩٧٥)،١٩٩٢/٢ وينظر : ابن عبد الحق ، عبد المؤمن البغدادي،مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، (القاهرة ١٩٥٥)،٣٢٦/١.

٥. واصف ، محمد امين ، " الجرعاء والجرعة " ،مجلة لغة العـــرب، (بغداد ١٩٢٧)، ٤١٨/٧ .
٦. الـهمداني ، الحسـن بـن احمـد ، صفـة جزيـرة العــرب ، (بغداد ١٩٨٩)/٢٩٧.
٧. جواد علي ، "الخليج عند اليونان واللاتيــن "، المـؤرخ العربـي (بغداد ١٢/١٩٨٠)/٢٩،وينظر : فؤاد جميل ، الخليج العربــي فـي مدونات المؤرخين البلدانيين الاقدمين "، مجلة سومر ،(بغـداد ١٩٦٦)، ٤٦/٢٢.
٨. رزوق عيسى ، قبور غريبة قديمة فـي البحريـن سـابقة لعـهد التاريخ،مجلة لغة العرب ،(بغداد ١٩١٣) ٢٧٤/٧ .
٩. جواد علي ، المصدر السابق ، /٣٠ .
١٠. واصف ، المصدر السابق ، ٤١٨/٧.
١١. الهمداني ، المصدر السابق ، /٢٥١.
١٢. ابـن حوقـل ، محمـد النصيبـي، المسـالك والممـالك (ليدن ١٨٧٢)،/٢٢.
١٣. المقدسي ، محمد بن احمد ، احسن التقاسيم في معرفـة الاقـاليم، (ليدن ١٩٠٦) ،/٩٤.
١٤. ابن حوقل ، صورة الارض ،(ليدن ١٩٣٩)،٢٦/١.
١٥. المصدر نفسه،٢٧/١.
١٦. فؤاد جميل ، المصدر السابق ، ٤٥/٢٢. وينظر الهاشمي ، رضـا جواد ، اثار الخليج العربي والجزيرة العربية ،(بغداد ١٩٨٤) /٦٩.
١٧. ويلسون، ارنولد .ت، الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسـف ،(الكويت-بلات) /١٠٩.

١٨. جواد علي ، المصدر السابق /٢٧.
١٩. لبيد ابراهيم وعبد الجبار ناجي ، العمق التاريخي العربي لجـــزر الساحل الشرقي للخليج العربي ،(الموصل ١٩٩١)/٤٤.
٢٠. المصدر نفسه /٤٠.
٢١. حوراني ، جورج فاضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى ، ترجمـــة : يعقــوب بكـــر ،(القاهرة بلات) /٤٣.
٢٢. رزوق عيسى ، المصدر السابق ،٧/٢٧٤.
٢٣. المصدر نفسه ،٧/٢٧٥.
٢٤. الهاشمي ، المصدر السابق /٢٧٣.
٢٥. جواد علــــي ، الفضــــل فــــي تــاريخ العــرب قبــل الاســلام ، (بيروت ١٩٦٨)، ١/٢٢١.
٢٦. شوقي عبد القوي عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية ، (الكويت ١٩٩٠) /٥٥.
٢٧. الهاشمي ، المصدر السابق ،/٦٩ .
٢٨. الكتاب المقدس ، نبوة حزقيال ، ٢٧/١٥.
٢٩. المصدر نفسه ،سفر اشعيا ،٢١/١٣.
٣٠. جواد علي ، المصدر السابق ،١/١٧٥.
٣١. جــواد علــي ، الخليــج عنــد اليونـــان ، المــؤرخ العربـــي ، (١٢/١٩٨٠) /٢٨ .
٣٢. ويلسون ، المصدر السابق ،/١٠٠.
٣٣. م ن .
٣٤. المصدر نفسه ،/١٠١.

٣٥. الهاشمي ، النشاط التجاري القديم في الخليج العربي واثاره الحضارية " ، المؤرخ العربي ،(بغداد ١٢/١٩٨٠) ،/٦٠.

٣٦. الكاتب ، محمد طارق ، شط العرب وشط البصرة والتاريخ،(البصرة ١٩٧٢) /١٧ .

٣٧. حوراني ، المصدر السابق ،/٤٤.

٣٨. ابو العلا ، محمودطه ، جغرافية العالم الاسلامي ، (القاهرة ١٩٦٨) /١٦.

٣٩. الهاشمي ، اثار الخليج ،/٦٧ .

٤٠. ويلسون ، المصدر السابق ،/١٠٢.

٤١. المصدر نفسه ،/١٠٣ .

٤٢. لبيد ابراهيم ، المصدر السابق ،/٤٠ .

٤٣. الكتاب المقدس ، نبوة حزقيال ، ١٥/٢٢.

٤٤. الهاشمي ، المصدر السابق ،/٦٧ .

٤٥. لبيد ابراهيم ، المصدر السابق ،،/٤٠.

٤٦. ويلسون ، المصدر السابق ،،/١٠٣.

٤٧. لبيد ابراهيم، المصدر السابق ،/٤٤.

٤٨. ويلسون ، المصدر السابق ،/١٠١،حوراني ،المصدر السابق،/٤٤.

٤٩. الهاشمي ، المصدر السابق ،/٦٧-٦٨.

٥٠. ويلسون ، المصدر السابق ،/١٠١-١٠٢.

٥١. حوراني ، المصدر السابق ،/٤٥.

٥٢. الهاشمي ، المصدر السابق ،/٢٧٣-٢٧٤.

٥٣. لبيد ابراهيم ، المصدر السابق ،/١٣.

٥٤. الهاشمي ، المصدر السابق ،/٧٠.

٥٥. لبيد ابراهيم ، المصدر السابق ،/١٣.

٥٦. المصدر نفسه ،/١٤.